

محمد الفيتوري من اليأس والعزلة إلى الوعي الذاتي والدعوة إلى التحرر

علي سليمي^{١*}، محمد حسن أمراي^٢

١. أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي، كرمانشاه

٢. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي، كرمانشاه

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٣/٩؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/٧/٢٨)

الملخص

لقد أصبحت المقاومة من المواضيع التي يدور في رحابها كثير من الشعراء المعاصرين. إن أصحاب الشعر المقاوم يدعون إلى النضال للحصول على الحرية والاستقلال ملتزمين بقضايا المجتمع والوطن. يعد الشاعر السوداني المعاصر محمد الفيتوري، من أكبر هؤلاء الشعراء المناضلين. يدرس هذا المقال بمنهج تحليلي-وصفي، تطورات شعر الفيتوري النضالي مشيراً إلى الجدلية بين الشعور بالنقص النفسي والتمرد الراض في شعره. نتائج هذه الدراسة تدل على أن الشاعر كان في البداية مستغرقاً في رومانسيته المتشائمة قضى قسماً من عمره بالخيالات المكونة في نفسه الحزينة، ثم تغيرت رؤيته الشعرية تغييراً جذرياً فتطور شعره من الرومانسية إلى الواقعية الإجتماعية، فأصبح من رواد شعر الرفض والتمرد في السودان وإن شعر الفيتوري في المرحلة الأخيرة تطور أكثر فلا يتعلق بقضية إفريقيا فحسب، بل أصبح شعراً ثورياً عالمياً وأنه مناجاة نفسية للتعبير عن الأحزان الموجودة في كوامن نفسه الثائرة، فأفريقيا صارت عنده رمزاً للتخلص من آلامه الموجعة. وله اتجاه صوفي مزيج بالرفض والتمرد.

الكلمات الرئيسية

الشعر العربي الحديث، الفيتوري، الوطنية، التمرد، التمييز العنصري.

مقدمة

إنَّ شعر المقاومة والنضال من المظاهر العظيمة التي تستهض إرادة وهمم الشعوب ضد الطغاة والمستعمرين الذين لا يعرفون إلا الكبت والقمع والاحتلال. إنَّ هذا الشعر يدور بدوره الريادي في تحريض وتأجيج مشاعر الجماهير وشاعر المقاومة هو الذي يتكلم عن حقوق شعبه الضائع ويحرض المظلومين علي استرجاع حقوقهم من الظالمين وتشبيه المضطهدين على عدم استسلام للمستكبرين. والشاعر المقاوم هو الذي يجمع بين مصيره ومصير أمته المضطهدة ويتحمّل السجن والمشقات المريرة من أجل إقامة العدل والاستقلال رافضاً الاحتلال يعبر عن هذا الرفض والتمرد لهذا الواقع المرير الذي يعانيه الشعب داعياً إلى المكافحة والنضال.

تجلّت وتبلورت هذه المشاعر النضالية الثورية بتمامها في قصائد الفيتوري ومقطوعاته، حيث تحمل في طياتها تفسيراً واضحاً لرغبات الشاعر ونزعاته في المجالات المختلفة من المقاومة والنضال. فاشتهر بذلك الفيتوري في قائمة المبدعين الرافضين المتمردّين وقد ذاق الويلات والمصائب الجمة في سبيل تمسّكه بكلمة «لا» واستمراره الدائم في سبيل المعارضة السياسية على طيلة خمسين سنة تقريباً.

إنَّ الفيتوري بالرغم من أنّه أول شاعر عربي معاصر وقف شعره كلّ على السياسة والنضال ولكن للأسف لم يتطرّق إليه الأدباء والنقاد المعاصرون كما هو حقّه. إنَّ هذه المقالة تدرس بمنهج تحليلي- وصفي شعر الفيتوري وتحتوي على المحورين الاتنين: الأوّل يتطرّق إلى مراحل تجربة الفيتوري الشعرية والثاني يدرس ملامح التمرد والرفض في شعره النضالي وبالتالي قدّمنا نتيجة تبين صفة ما حصلنا عليه.

أما بالنسبة لخلفية البحث ففي ما يلي نشير إلى ما بذلت من الجهود لدراسة آثار الفيتوري:
- «أيام مع محمّد الفيتوري» كتاب نشره غريد الشيخ في سنة (٢٠١١م) وهو جزء من أجزاء «سلسلة أيام معهم»: مجموعة من قصص تمثيلية تحكي كلّ واحدة منها عن شاعر بأسلوب حديث. البطلة الرئيسية هي فتاة تستحضر أبطالها، تحاورهم وتتعاطف معهم وتتعرّف على حياتهم من خلال أحداث يروونها وأشعار يقرؤونها.

- «نقد وبررسي مضامين سياسي در شعر محمد الفيتوري» رسالة مقدّمة إلى جامعة طهران المركزية الإسلامية الحرّة، سنة ١٣٩١ش لنيل درجة الماجستير، درسها الباحثة الإيرانية راحلة

محمّدِي الأصل وتطرّقت فيها إلى الأحداث السياسية التي أصيب بها الشاعر الفيتوري من خلال أشعاره.

- «التراث في شعر محمد الفيتوري» رسالة مقدّمة إلى جامعة مؤتة بالأردن درسها الطالب سلطان عيسى الشعار استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية سنة (٢٠٠٧م)؛ حيث درس فيها الرموز التراثية في شعر الفيتوري.

- «واكاوي رومانتيسم جامعه گرا در اشعار هوشنگ ابتهاج ومحمد الفيتوري» مقال باللغة الفارسية قام به الباحثان الإيرانيان أميرحسين رسول نيا ومريم آقاجاني ودرسا فيه الواقعية في أشعار الفيتوري واجتماعياته. وهذا المقال نُشر في مجلة الأدب المقارن بجامعة الشهيد باهنر - كرمان سنة ١٣٩١ ش.

- «الفيتوري الضائع الذي وجد نفسه» كتاب للباحث إيمان يوسف البقاعي، طُبِعَ سنة ١٩٩٤م في بيروت، منشورات دار الكتب العلمية ودرس المؤلف فيه حياة الفيتوري وأدبه دراسة تحليلية.

- «الرؤية الأورفية والوعي ممكن في شعر الفيتوري» مقال كتبه بن عيسى بوحماله سنة ١٩٨٧م في مجلة فصول، المجلد السابع، العدد الأول.

- «بررسي اشعار مقاومت محمد الفيتوري در سه ديوان شعري (أغاني أفريقيا، عاشق من فلسطين، اذكريني يا أفريقيا) رسالة مقدّمة إلى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الإسلامية الحرّة، فرع كرمانشاه لنيل درجة الماجستير، كتبها الباحثة زهرا الشيرزادي باللغة الفارسية سنة ١٣٨٨ ش.

- «بررسي اشعار عاشقانه وعارفانه در اشعار محمد الفيتوري» رسالة مقدّمة إلى الجامعة الإسلامية الحرّة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها، كتبها جواد العزيزي باللغة الفارسية في عام ١٣٨٩ ش ودرس فيها أدب الفيتوري دراسة تحليلية من حيث الوجد والتصوف أحياناً.

- «الاعتبارات الصوفية في شعر محمد مفتاح الفيتوري» أطروحة كتبها ج. محمد الخامس بتطوان الواقعة شمال المغرب سنة ٢٠٠٧م لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها ودرس الباحث فيها الفيتوري وأدبه الصوفيّ.

- «النزعة الزنجية في شعر السودانيّ المعاصر، محمد مفتاح الفيتوري نموذجاً» رسالة كتبها الباحثة حميدة بنت سويد سنة ١٩٨٦م، للحصول على درجة الماجستير في الأدب ودرست فيها الزنجية في شعر الفيتوري.

- «شعر محمد الفيتوري: المحتوى، الفن» كتاب لعبدالفتاح عبدالمحسن الشطينشر في لبنان منشورات دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع سنة ٢٠٠١م.

- «محمد الفيتوري والمرآيا الدائرية» كتاب لنجيب صالح، طبعته منشورات الدار العربية للموسوعات في مجلد واحد في سنة ١٩٨٤م.

- «محمد الفيتوري شاعر الحس والوطنية والحب» كتاب نقدي طبعه الدكتور منيف سالم موسى سنة ٢٠٠١م، في منشورات دار الفكر العربي وألقى فيه نظرة تحليلية نقدية على أشعار الفيتوري.

وغيرها من الدراسات المتناثرة في ثنايا الكتب والمجلات والمنشورة في المواقع الالكترونية التي ربما جاءت بأشياء مهمة عن شخصية الشاعر وأدبه وفاتتها أشياء أخرى لا تقل أهمية عنها، ورغم ذلك لم نعثر على دراسة شاملة وافية لموضوع المقال: محمد الفيتوري من اليأس والعزلة إلى الوعي الذاتي والدعوة إلى التحرر.

ولكن هذه الدراسات ما كانت تتعلّق وترتبط بدراستنا حول التمرد والرفض في شعر الفيتوري. وهنا يجدر الإشارة إلى أنّ الفيتوري شاعر صوفي اجتماعي رافض متمرد إلى حدّ ما. قد ألقى نفسه في مأزقٍ حرجٍ في سبيل هذا الحب والتعصب والالتزام، لذلك يستحق بالدراسة أكثر من هذا، لاسيما من ناحية أغراض شعره خاصة أنّها لم تعالج النواحي والجوانب الفنيّة والبلاغية والنحويّة لقصائده وأشعاره.

الفيتوري بين الرومانسية والواقعية

الرومانسيّة الذاتية الحاملة:

نشأ الفيتوري في مدينة الإسكندرية وقد «كانت مدينة ذات طابع «كوزموبوليتاني»^١ يكثر فيها الأجانب عن المعتاد وكان الفيتوري الأسمر القصير الأسود يحسّ بالغربة والحزن والانفراد في ذلك المجتمع الذي عاش فيه الشّاعر ولم يحس بالانتماء إليه وكان لتلك الحالة الوجوديّة التي تعذب بها أثر بالغ في شعره، فمنذ ديوانه الأوّل وهو يتنّ تحت وطأة الإحساس بالألم والغربة والحزن وكان إحساسه بالدمامة والزنوجة، مبالغاً فيه إلى حدّ العذاب» (محمد

١. مختلط، متعدد الجنسيات

منصور، ١٩٩٥: ٢٠٣). في هذه المرحلة من حياة الفيتوري نلاحظ أنّ الوحدة والإنفراد والغربة هي الطابع الأساسي الذي طبع حياة الشاعر، كما ظهر أثره في شعره فصور هذا العذاب المرير في صورة مؤلمة:

فَقِيرٌ... فُوجَهُ كَأَنِّي بِهِ / دُخَانَ تَكْتَفُ ثُمَّ التَّحَمَ / وَعَيْنَانِ فِيهِ كَأَرْجُوحَتَيْنِ /
مُتَقَلَّتَيْنِ بِرِيحِ الأَلَمِ / وَأَنْفٌ تَحْدَرُ ثُمَّ ارْتَمَى / فَبَانَ كَمَقْبَرَةٍ لَمَّتَمَ / وَمِنْ تَحْتِهَا شَمَةٌ
ضَخْمَةٌ / بَدَائِيَّةٌ فَلَمَّا تَبَتَّسِمَ (الفيتوري، ١٩٧٩: ١٧)

كانّ الفيتوري في هذه القصيدة وقف أمام مرآة ذاته ليرى عيوبه الجسدية حيث يصف حقارته التي تنعكس على أعماق ذاته، فيشعر بالانقص كأنه يكتشف سرّ المأساة التي ولدت معه والمأساة هي أنّه قصير وأسود ودميم. إنّ هذه التصورات الكامنة في ضمير الشاعر ورؤيته وإحساسه بمعاناة الإنسان الأسود في البداية جعله ذا طابع رومانسي ذاتي حزين نابع عن أحلام وجوده وكان يستشعر الكثير من المآزق حين ينظر في المرآة فكان لا يرى فيها غير وجه إنسان أسود فقير. كان يعتقد أنّ مأساة الإنسان الأسود الإفريقي يصنعه هذا اللون والوجه الأسود فقط لا غير وكان لا يعرف بأنّ الاستعمار لا يحتفل بأيّ قضية متعلّقة باللون سواء الأبيض أو الأسود إنّما يريد هو احتلال الأراضي الإفريقية. إنّ هذه الرؤية الرومانسية الكامنة لم تكن تروق وتعجب لمواطنيه السودانيين ذوي البشرة السوداء، بحيث أصبحت موضع نقاش من قبل النقاد والمثقفين.

الواقعية الاشتراكية الملتزمة:

إنّ مدينة الإسكندرية قد لعبت دوراً جذرياً مصيرياً في تطور حياة الفيتوري في جميع أنحاءها، ليس في مرحلته الرومانسية فحسب، بل في انتقاله إلى مرحلته الواقعية أيضاً. إنّ هذه المدينة كانت ملتقى الحضارتين المصرية واليونانية، فكانت لها أثر كبير في إيقاظ الفيتوري من رومانسيته؛ لأنّ الإسكندرية قد كرّست الحقد هذا الأسود ضد تسلط الأبيض وإذلاله الآخرين، فكانت فيها للطبقة الأرستقراطية الأوروبية البيضاء إنهم كانوا لا يعرفون للوجه الأسود إلاّ خادماً ذليلاً فخلق هذا التعامل في نفسية الشاعر رؤية حاملة ذاتية حزينة؛ لذلك يقال: «لم يكن الإهتمام من جانب الفيتوري بشعر الواقعيّ افتعالاً بل كان منطقياً مقبولاً» (محمد منصور، ١٩٩٥: ٢٠٤). ومن أثار هذه التعاملات المؤلمة في مدينة الإسكندرية أنّها جعلت الشاعر يسافر بأشعاره إلى إفريقيا وطن الجدود الذين يجمعهم اللون وتجمعهم

مأساة الحزن والذلّ وبهذا الانتقال بدت مرحلة جديدة في حياة الشاعر، حيث خرج من أزمته الشخصية وتعاطف مع «الواقعية الاشتراكية» التي كانت تشرح الواقع للوصول إلى الأفضل وإلى الخير (العشماوي، دون تا: ١٨١). وغير نظرتة فعالج الموضوعات والمفاهيم العصرية بإيحاءات جديدة ورؤى جديدة بحيث أصبحت رائد الاتجاه الواقعي في السودان، كأنه كان يريد بهذه التغييرات الجذرية في شخصيته وشعره أن يخلق من أشعاره دنيا جديدة ويبث في الأحزان والغربة والضياع الموجودة في أشعاره روحاً جديدة حتى يحيلها إلى السرور والمعرفة والاهتداء، حيث يقول في قصيدته «الغريب»:

النَّاسُ يُولَدُونَ أَغْرَاباً / وَحِينَ تَلْتَقِي الْغَرِبَةَ بِالْغَرِبَةِ فِي طَرِيقٍ / يُولَدُ طِفْلُ الْحَبِّ
وَالْمَعْرِفَةِ... / أَجْمَلُ مِنْهُ لَمْ تَشَاهِدْ قَطُّ عَيْنَانِ / لِأَنَّ أَطْفَالَ الْحَيَاةِ حَيْنِيُولَدُونَ /
يَخْضَوْضُرُونَ لِحِظَةً / وَيَنْضَجُونَ ثُمَّ يَسْقُطُونَ / فِي قَبْضَةِ الْعَاصِفَةِ / لَكِنَّ طِفْلَ
المعرفة يخضر أشجاراً على طول الطريق (الفيثوري، ١٩٧٩: ٥٩)

صوّر الفيثوري في هذه القصيدة السفر والغربة الصارخة في وجوه النَّاسِ والاضطراب والاكْتئاب والناس الذين يولدون كأغربة. إنَّ هذه القصيدة تعدُّ بحق زلزالاً شديداً فيشعر الفيثوري وحبّه لإفريقيا وأضفى على أشعاره طابعاً ثورياً نضالياً جديداً وهذه الواقعية في شعره يصل إلى أعلاها في «أغاني إفريقيا» حيث يسمع منه رنين جلجلة الإفريقيين يضربون في طبولهم لأجل الإنقاذ من استبعاد الاستعمار البريطاني وتوحيّ الحرية؛ عندما كتب الفيثوري ديوان شعره الأوّل فقد جذب إليه أنصار المدرسة الواقعية بسبب أنّ التزام الشاعر بالواقعية يحدوه إلى مواجهة «قضايا الصراعات الإنسانية والاجتماعية وحقائق الفن والموت والنضال والحياة» (يوسف بقاعي، ١٩٩٤: ٤٦). وإثارة قضايا الإنسان الإفريقي وعذابه ووقوعه فريسة للنهب الاستعماري والتفرقة والعنصرية، بل العبودية والرق، فكتبوا في إشاداته كثيراً بشعره الواقعي (محمد منصور، ١٩٩٥: ٢٠٤). يقال في شأنه في هذه المرحلة الشعرية: "ليس المهمّ أن يكون للكاتب أو للشاعر ماضٍ يجلس عليه، بل المهمّ أن يكون له مستقبل يرتقي إليه" (ميشال جحا، ١٩٩٩: ٤٤٧). وفي جدلية الآراء والنظريات بشأن تطوّر شعره بين الرومانسية والواقعية يمكن أن يقال إنّه على كلّ حال أصبح رائداً للاتجاه الواقعي في السودان الذي بدأ في بداية الأربعينات من القرن العشرين وليست الرؤية السابقة التي يعتبرها البعض من ملامح الرومانسية في شعره إلا عقدة الشخصية وأزمتها تجاه لونه الذي يعذب الكثير من الإفريقيين منه حين يحتكون بالعالم الخارجي، تلك القضية التي تسمّى

عند بعضهم «بالرؤيا الأفريقية» (بدوي، ١٩٨١: ٢١٠). فالشاعر الفيتوري عاش زمنًا قليلاً برومانسيته النابعة عن هذا الشعور «ثمّ يتخلص من هذه الأزمة حيث تصبح قارة أفريقيا قضيته ورؤياه التحررية» (بدوي، ١٩٨١: ١٨١). فلذلك هو والشعراء السودانيون قد حركوا ركود القصيدة العربية وملأوها بالغضب والنار والتمرد مبتدئين ثورتهم من واقعهم الحزين فإنّ هذه الموجات قد صبّت في نهر كبير اسمه إفريقيا. لقد «أصبحت إفريقيا رمزاً لتمزقهم وضياعهم وجليانهم، فقد أصبحت عند الفيتوري معادلاً لمعاناته وقناعاً يستطيع من ورائه أن يصرخ وأن يثور، بل وأن يحقد وأن يتحدّى» (بدوي، ١٩٨١: ٢١٨).

مراحل تطوّر شعره

مرحلة اليأس والتوتر الذاتي:

كان الفيتوري في البداية لا يهتمّ بالمقاومة بل كان مليئاً باليأس بسبب لونه ووجهه السوداء، بحيث كاد يصيبه مرض نفسي بسبب هذا اللون من خلال تفكراته العبيثية. إنّه كان في البداية يزعجه لون بشرته أكثر من أي شيء آخر فأثّر هذا في شعره تأثيراً بالغاً وهو يئنُّ تحت وطأة الإحساس بالألم والغربة والحزن وكان إحساسه بالدمامة والزnojة، كما يقال مبالغاً فيه إلى حدّ العذاب فصوّره في صورة مؤلمة:

فقيرٌ أجل... ودميمٌ دميم / بلون الشتاء، بلون الغيوم / يسير فتسخر منه
الوجوه / فيحمل ألامه في جمود / ويحضنُ أحزانه في وجوم / ولكنه أبدأً حالمٌ وفي
قلبه يقظات النجوم / فقيرٌ.. فوجهٌ كأني به دخانٌ تكثّف ثمّ التحمّ / وعينان فيه
كأرجوحتين / مثقلتين بريح الألم (الفيتوري، ١٩٧٩: ١٧)

إنّ الفيتوري في هذه القصيدة يخجل من نفسه بسبب لونه السوداء كأنّه يظنُّ بأنّ جميع الناس دائماً ينظرونه ويسخرون منه وكان يحسُّ بأنّه يثير فيهم روح السخرية والاستهزاء لذلك يكمن أغمامه في أنحاء نفسه فيكون دائماً حالمًا وهذه الرؤية الخيالية الذاتية يمنعه التفكير بشأن واقعيات مجتمعه. مع أنّ الشاعر الفيتوري كان شاعراً ملتزماً ذا صبغة دينية وفي حين أنّه كان من حفاظ القرآن الكريم ولكنه لم يتأثر بالقرآن في رأيه هذا ولو كان يدرك ما ورد في القرآن الكريم بشأن اختلاف الألوان والألسنة ويعتبرها آية من آيات الله، لا يخجل لسواد بشرته أبداً. لقد عاش في هذه المرحلة عيشة متواترة مملوءة بالتشريد الذهني. كانت بشرته السوداء تقيم بينه وبين المدينة التي يحيا فيها حاجزاً كثيفاً يحرمه المشاركة

والاندماج ويؤجج في باطنه مشاعر مريرة صفراء ويشحذ حساسيته. إنّه كان يظنّ أنّ مأساته ومأساة الإنسان الأسود الإفريقي يصنعها هذا اللون والوجه الأسود. هو في هذه المرحلة لم يكن شاعراً اجتماعياً مهتماً بقضايا شعبه بل كان يفكر كشعراء الرومانسية المتشائمة كان دائماً غارقاً في أفكاره وأوهامه السوداوية المؤلمة. إذن حمل الفيتوري عبء الانفراد والوحدة والإحساس بالألم الناتج عن اللون الأسود؛ لأنّه عاش في عصر كان الرومنتيكية في أوجها ولهذا يعدّ الملمح الرومنتيكي عنده ملمحاً أصيلاً بحكم طبيعة الشاعر المغترب، المتوحد، الحزين وبحكم العصر الذي نشأ فيه وترعرع في أكنافه. فلذلك نلاحظه قد توقف عند جبران أكثر من غيره؛ لأنّه كما يقول غريب وحزين ومنكسر القلب مثله كما توقف عند إبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل وحسن كامل الصيّري، من شعراء جماعة أبولو وعند الشاعر محمد عبدالمعطي الهمشري والشاعر السوداني التيجاني يوسف بشير وكلّهم من الرومنتيكيين.

مرحلة اليقظة والشعور بالوعي:

عندما كان الشاعر أسيراً في أفكاره الذاتية الحاملة ورؤيته غير واقعية، كان مواطنوه الأفريقيون ذوو البشرة السوداء ينتقدونه بسبب رؤيته هذه. هذه الانتقادات أثّرت في نفسية الفيتوري وأوقفه من سباته العميق فتغيّرت رؤيته إلى الشّعْر وتبدّل فنونه الشعريّة من الرومانسية الغنائية إلى الواقعية الاجتماعية، فأصبح شاعراً نضالياً لا يهتمّ اللون ولا يفكر إلاّ بالجماهير، فأصبح من الذين يعتقدون بأنّ: «العامل الأسود والعامل الأبيض يرزخان تحت نير تاريخي واجتماعي واحد هو نير الرأسمالي الأبيض والرأس المالي الأسود، نير الاستعمار والاستغلال، فالقضية إذن ليست قضية أسود وأبيض، إنّها قضية مستغلّ ومستغلّ، قضية الكادحين وأصحاب رؤوس الأموال» (غريد الشيخ، ٢٠٠١: ٢٥). في هذه المرحلة أصبحت الحرية الهدف الأوّل والأسمى لنتاجاته الشعريّة فوقف شعره كلّ لهوى قديم ولد معه ورافقه منذ طفولته وهو حبه لأفريقيا التي منحها كلّ ما ملك من شغف وفكر وتمرد.

إنّ الفيتوري في هذه المرحلة من شعره النضاليّ قد تجاوز عن تخوم أفريقيا وصارت قضيته لم تكن أرض أفريقيا فحسب بل شملت الأمة العربية الاسلامية، فيستدعي في شعره النضاليّ الحوادث والشخصيات التاريخية كانتصارت العرب على هولوكو ويطولات صلاح الدين الأيوبيّ وجمال عبدالناصر وهي التي كان الشاعر يعيش في انتظار مبعثها وولادتها من

جديد على أرض فلسطين. منها ما أنشده في رثاء جمال عبدالناصر المعنونة بالناصريات التي نشرت في ديوانه (الفيتوري، ١٩٧٢: ٥٢):

وكان يد العربي الأول، تشعل كلّ مآذن مكة / كأنك كنت تقاتل تحت لواء محمد
(ص) في مجد الإسلام / ورحلت غريباً تحملك الأيام / كي تبصر ظلّ جوادك عبر
مواني بحر الروم / ونبني أهرمات أمية فوق جبال الشام / وحين تجيء سحابة
هولاكو التتاري... / وتزحف أذرة التين.. / وتنهار الأشياء جميعاً.. / تولد ثانية
في عصر صلاح الدين... / إنّي أصغى لصدى خطواتك في أرض فلسطين / أو أنت
قادم عند الفجر إلى أرض فلسطين

في هذه القصيدة يرينا الفيتوري قضية عامة شاملة فيعرف عبدالناصر كقضية عالمية مرتبطة بكلّ كيانات العالم العربي، إن قضية موت عبدالناصر في هذه القصيدة ليست مجرد حادث عارض، أو مناسبة يمكن اختزالها في قصيدة رثاء. ففي رأيه أنّ عبدالناصر هو القومية العربية والوحدة الكبرى وكلّ الأحلام العربية المأمولة ومن ثمّ يتحوّل عبر شاعرية الفيتوري إلى فكرة مجردة تعبّر عن النضال المستمر، فكرة ولدت مع مولد العربي الأول وتنامت مع تاريخ العروبة والإسلام مروراً بالأمجاد العربية. وفي رأيه إنّ استدعاء شخصية الأبطال للكفاح ضد الاستعمار في الواقع يكون استدعاء كلّ القومية العربية والوحدة الكبرى في كلّ أنحاء العالم، قضية أفريقيا، قضية فلسطين، قضية لبنان، فتشأ الفيتوري ورحلته الطويلة مع الأدب والسياسة والصحافة جعلته شاعر التخوم لا ينتمي إلى وطن نهائي، كما يقول الكاتب اللبناني عبده وازن؛ فهو يقيم على تخوم الخريطة العربية والإفريقية، وعلى تخوم العروبة والزوجة أيضاً وكذلك على تخوم الغناء والالتزام والكلاسيكية والرومنطيقية والحداثة، فيقال في شأنه: «يجب أن يكون الفيتوري كشاعر، سفير النوايا الحسنة إلى جميع الدول العربية» (غريد الشيخ، ٢٠٠١: ٢٠١).

شعره النضالي وقضاياه المصيرية

إنّ أدباء الرفض ومبدي التمرّد والذين تجاوزوا المألوف في الشعر العربي المعاصر كثيرون على خارطة الوطن العربي الفيتوري من أبرز هؤلاء الشعراء الذين يسمّون بـ«أدباء الرفض والتمرّد» في الوطن العربي. إنّ الفيتوري هو الشاعر الذي قد أحسّ مشاكل إفريقيا والعرب معاً. إنّ شعره نسخة توافق الأصل لمشاكل الإنسان المضطهد ومعاناته في جميع أنحاء العالم الثالث وفي جميع دواوينه يتراءى حرمان الجيل الأسود ومعاناتهم في بيان مؤثر وصميم. إنّ

من الشعراء الممتازين لجيل قد تطرّفوا إلى الشّعْر بعد الحرب العالميّة الثّانيّة ولأجل الأَرْضِيّة الاشتراكيّة وحدّة اللحن ولسان الشعر لاسيّما في بلده إفريقيا، لا بدّ أن يُعدَّ في الطابور الأوّل بين الشعراء المتقدّمين في أدب المقاومة و«أغاني إفريقيا» جعل «اسم الفيتوري يقفز بسرعة ليقف بجدارة بجانب اسم نازك الملائكة والسياب وعبدالصبور والبياتي» (غريد الشيخ، ٢٠٠١: ٢٠). كانت قصائد الديوان تدور حول القارة السوداء وعذابات ومعاناتها وحثّها على النهضة والوقوف بكرامة في وجه المستبد الأبيض الذي استعبد إنسانها وعبث بتأريخها وخنق حرّيتها واستغلّ ثروتها. إفريقيا هي الأرض المحبوبة للشاعر التي وقف عندها طويلاً في أشعاره وقد تمثّلها على هيئة امرأة يعيشها ويتحدّ بها ويفني فيها كما يفني الصوفي في ذات الحقّ، فهو لا يبالي بأيّ عذاب يلاقه بسبب معشوقه، بل أنّه يتحمّل القتل في سبيل هذا الوطن لأنّه حياة له:

كُنْتُ أَعْرِفُ.. وَأَنَا احْتَضِنُ الرّايَةَ مِنْ مَنْفَى لِمَنْفَى / إِنَّهُمْ قَتَلُونِي مَرَّةً وَاحِدَةً.. /
أَوْلَدُ فِي عَيْنَيْكَ أَلْفًا (الفيتوري، ١٩٩٢: ٥)

فحبّ الوطن بهذه الشمولية لم يلاحظ عند أيّ شاعر آخر إلا ما اشتهر به الشاعر الفلسطيني «محمود درويش» إذ تحلّ فلسطين محل المرأة المحبوبة المفقودة (محمّد منصور، ١٩٩٥: ٢٠٩). إنّ أوّل قضية تتجلّى نوازعه في قلب الفيتوري بعد يقظته، قضية إفريقيا القارة المتوحشة السوداء بسكانها الزنوج الحفاة العراة. فينظم فيها أربعة دواوين، فيصدر مجموعته الشعرية اللأولي «أغاني إفريقيا» وهو في هذا الديوان يدافع عن إفريقيا وشعبها الذي استعمره الرجل الأبيض، واستغله واحتقره ويصوّر أحاسيس الرّجل الأسود الذي يدافع عن كرامته وحرّيته وحقّه في الحياة، فيقول:

جبهة العبد... ونعل السيد / وأنين الأسود المضطهد... / تلك مأساة قرون
غبرت / لم أعد أقبلها... لم أعد / كيف يستعبد أرضي أبيض / كيف يستعبد أمسي
وغدي / كيف يخبو عمري في سجنه / ودار السجن من صنع يدي / أنا
زنجي... / وإفريقيتي لي لا للأجنبي المعتدي / أنا فلاح ولي أرضي... / التي شربت
تربتها من جسدي / أنا إنسان ولي حرّيتي / وهي أغلى ثروة من ولدي / أنا حرّ
مستقبل البلد / وسأبقى مستقبل البلد... (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

إنّ الفيتوري يحاول أن يستحضر إفريقيا وأمتها عذابات أزمنة مضت، حتّى يحرّضهم على الحرية والتحرير في سبيل إطلاق السراح عن عبوديتها واستغلالها. في الحقيقة تبلور

شعر الفيتوري في أفريقيا والدفاع عن قضاياها والذود عن مصالح شعوبها فهو لا يتكرر لواقعه وقوميته العربية، فهو عربي أولاً وإفريقي ثانياً. فلا عجب أن نجد في شعره التيار العروبي هادراً صاحباً وهو لا بد أن يتأثر بواقع أمته العربية والدفاع عن قضاياها.

مع أن كل ممتلكاته الحربية تكون قلمه ولكن في ديوانه «أغاني أفريقيا» يسعى ويحاول أن ينصر الجنس الأسود ويحرر الأفريقي ويوصل شخصيته وذلته وينفض الضعف والوهن عنه ويخلصه عذاباته وغربته من خلال الدعوة إلى المناضلة الإنسانية؛ لأنه محب لأفريقيا حباً أوروبية^١ ويتوخي سعادتها:

يا أخي في الشرق، في كل سكن / يا أخي في الأرض، في كل وطن / أنا
أدعوك.. فهل تعرفني؟ / يا أخوا أعرفه.. رغم المحن... / فاستمع لي.. / فاستمع لي
(الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

ثم يتجه إلى الجماهير الذين قد نور نور الوعي قلوبهم ويشوقهم ويشجعهم للاقتداء به حتى يكافحوا ويسجلوا تاريخ شعبهم بالقوة، من هذا المنطلق يسعى في تأجيج مشاعرهم للنضال ضد الاستعمار:

فأنظر الأصرار في أعينها / وصباح البعث يجتاح الجبال (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

ثم يدعوهم الشاعر إلى الثورة:

«يا أخي في كل أرض وجمت شفتها / واكفهرت مقلتها / قم.. تحرر من
تواييت الأسي / لست أعجوبتها أو مومياها / انطلق فوق ضحاها أو مساها / يا أخي
قد أصبح الشعب لها (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

وفي نهاية هذه الحرب الدامية التي صورها الشاعر في قصيدته هذه يدعو لبلدته الإفريقية جمعاء لتكون سالمة راجياً أن يرجع هذا الفردوس الضائع إلى أحضان أبنائه:

فأسلمي يا أرض إفريقيا لنا / واسلمي يا أرض إفريقيا لنا... / وستبقي أرض
إفريقيا لنا / فهي ما كانت لقوم غيرنا (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٥-٧٦)

١. الأورفيوس: اسم أطلق على دين كان يعتنق ويمارس في اليونان القديمة والعالم الهلنستي، والتراقيون، ارتبطت أديباً بأسطورة اورفيوس. أسطورة. وحب أورفي أي حب أسطوري.

ثمّ يخاطب الفيتوري الاستكبار الأبيض بنبرة مملوءة باستهزاء واضح عندما يعلو صوت الشعب ضد هذا المستغل الذي قد احتلّ أرضه وجعله ضعيفاً فيقول:

فَاخْلَعْ تَاجَكَ الْآنَا / كَفَاكَ مِنَّا ضَرَعَاتٍ وَإِذْعَانَا / وَحَسْبُنَا مِنْكَ تَخْرِيبًا
وَطُغْيَانًا... إفريقيا/ إفريقيا استيقظي/ استيقظي من حلمك الأسود/ قد طالما
نمت... ألم تسأمي؟ / ألم تملّي قدم السيد؟.. (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٦)

هو الرجل شديد الالتزام لقضية الوطن، أرض إفريقيا واستغلالها هي التي دفع الفيتوري إلى أن يقرع الطبول. فقد أصبحت إفريقيا عنده معادلاً لمعاناته وقناعاً يستطيع من ورائه أن يصرخ وأن يثور والملاحظ أنّ الشاعر في هذا الشعر يخاطب إفريقيا دون حرف النداء للدلالة على أنّ المنادى معلوم وقريب حسيّاً ومعنوياً. لقد بدأت القصيدة بزور بذور الوعي في روح النائم شبه بالميت، فالنوم على مثل هذه الحالة لا ينتج إلاّ الكوابيس والأحلام السوداء... ثمّ أردف قائلاً بفعل الأمر «استيقظي» ناهياً شعبه عن الغوص في الأحلام والأمانى تاركين العمل والثورة، وقد استعمل الفيتوري هذا الأسلوب للفت انتباه الشعوب الإفريقيّة وتبهيهم لأوضاعهم السوداء المتخلفة وضلالهم اللا متناهي.

ألم تملّي قدم السيّد؟/ قد طالما استلقيت تحت الدجى/ مجهدة.. في كوخك
المجهّد/ مصفرة الأشواق.. معتوهة.../ تبني بكفيها ظلام الغد../ جوعانة
تمضغ أيامها/ كحارس المقبر المّعد../ عريانة الماضي../ بلا عزة تتوجّ الآتي../
ولا سؤدد.. (الفيتوري، ١٩٧٩: ٦١-٦٢)

ههنا يتكلم الفيتوري بلهجة الأم الحنان لابنه، ويقول قد نمت مدة طويلة دون أن تتمتع بدفء الشمس واستنشاق الهواء النقي، وتظل غارقاً في الأسود، في اللون المزعج. ألا تريد أن تصحو، حتى متى تريد أن تصل ليلك ليل آخردون أن ينتظرك قادم مضيء فصارت إفريقيا «رمزاً للخلاص الذاتي» «يخلع عليها مأساته الخاصة» (العالم، ١٩٧٩: ٤٧) يعني في الحقيقة هذه الآلام له ولكنّه يأخذ إفريقيا ويخفي من وراءها قناعاً ويعزوا هذه القضايا إلى إفريقيا، ثمّ يواصل الشاعر فيتصوّر إفريقيا أنّها رغم دوران الزمن قد ظلت نائية عن كلّ التغيّرات ساكنة بلا قيمة كالجمجمة الملقاة، ثم تنعتها بأنّها أمّة وضائعة:

إفريقيا/ إفريقيا استيقظي/ استيقظي من ذاتك المظلمة.../ وأنت لازلت كما
أنت/ كالجمجمة الملقاة../ كالجمجمة.../ واعجباً ألم تفجّر شرايينك سخرياتهم
يا أمّة (الفيتوري، ١٩٧٩: ٦٣)

إنّ «الموت والليل والجمجمة» كلّها رموز للواقع الذي لا بدّ أن تتغيّر وفي هذه القصيدة الكثير من الأمل بالمستقبل وقدرة الشعب على تغيير مصيره إذا توفرت فيه العزيمة والإصرار للمكافحة والنضال. يقول قد آن وقت الحركة والتحدّي، وهي دعوة صادقة إلى الثورة على الظلم والاستعباد والاستعمار أيّاً كان شكله. إنّ إفريقا منبع ومصدر لإلهامات الفيتوري في مقاومته ونضاله و«عندما يهاجسه إفريقا والرجل الأبيض الذي أذلّها واستغلّها، يقرع الطبول (ميشال جحا، ١٩٩٩: ٤٤٥):

يا أخي في الشّرقِ في كلّ سَكَنٍ / يا أخي في الأرضِ في كلّ وطنٍ / أنا أدعوك
فَهَلْ تَعْرِفُنِي؟ / يا أَخاً أَعْرِفُهُ رُغْمَ المِحْنِ / إِنُّنِي مَرَّتُ أَكْفَانَ الدُّجَى / إِنُّنِي هَدَمْتُ
جُدْرَانَ الوَهْنِ... / أنا حيٌّ خالِدٌ رُغْمَ الرَّدَى / أنا حرٌّ رُغْمَ قُضْبَانِ الزَّمَنِ
(الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٣-٧٢)

ثمّ يستذكّرهم ماضيهم المؤلمة حتّى يثيرهم في سبيل الحرية ويستعيدهم للقيام فدعوة من حرّ يكسر قيوده. ودعوة للإصغاء إلى الصوت المجلجل العالي. يقول إنّ كفاحه في سبيل مجدهم ويخاطبهم بأنّ الآداء والآلام التي تلاقيهم في سبيل تحرير وطنهم تهون تجاء تحرير الوطن وإزالة العار والعيب:

«إن نَكُن سِرِّنا عِلد الشُّوك سِنينا... / إن نكن عشنا حفاة جاتعينا... / إن نكن
أوهنتِ الفأسُ قُوانا / فَوَقَفْنَا نَتَحَدَّى الظَّالِمينا... / فَبَنينا لِأمانينا سُجونا... / وملأنا
كأسه من دمننا / فتساقانا جراحاً وأنيانا / وجعلنا حجر القصر رؤوسا / ونقشناه جفوناً
وعيوننا / فَلَقَدْ تُرنا عِلد أنفُسنا / ومحوّنا وصمة الدُّلّة فينا (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٣-٧٥)

ثمّ يدعوهم الفيتوري إلى التحرر واليقظة ويعدّهم الفتح والرجاء بإطلاق السراح عن إسارتهم، بأبيات فيها الصوت والحركة يمتزجان في لوحة معبرة:

الملايينُ أَفاقَت من كراها / ما تَراها مَلأ الأَفقَ صداها / خَرَجَت تَبَحُّثُ عن
تاريخها / بَعَدَ أن تاهت على الإرضِ وتَها (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٥)

الآن قد حان زمان العمل والتحرك، إنّ الفأس رمز العمل، والجموع المنحدرة من الروابي خرجت تبحث عن تاريخها، والبحث عن الذات هو نقطة البداية نحو التحرك والعمل. وقد قرب صباح البعث أي: فجر الثورة. يقول:

حَمَلت أَفؤسها وانحدرت / من روايبها وأغوارِ قُراها / فَانظُرِ الإصرارَ في
أعينها / وصياحِ البَعثِ يجتاحُ الجِباها (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٦)

إنّ الشاعر للمرة الثانية يدعو إخوانه مكرراً، في دعوة شاملة «في الشرق وفي كلّ وطن» أيضاً «في الأرض وفي كلّ وطن». ونلاحظ النداء الإنساني المتكرّر «يا أخي» منذ بداية هذه القصيدة الملزمة فهو نداء إنساني لكلّ مظلوم ومقهور ومستعبد. ويقول: يا أخي في ذلك البلد الذي ليس عند أمتهم رجاءٌ للحياة في القادم، أنت يا أخي قُمْ وأنجُ أنت نفسك من ألم وكدّ الاستعمار، بينك وبين غيرك من الناس تفاوت كبير وبون شاسع، أنت لست موميئياً ومحظاً للاستعمار. إنّما أنت حرٌّ، إذن في أمسّ الحاجة إلى أن تعيش حراً في الحياة اليوم وفي القادم.

يا أخي في كلّ أرضٍ وجَمَت شَفَتَاها / واكفَهَرَت مُقَلَّتَاها / قُمْ.. تحرّر من

توايبت الأسي / لست أعجوبتَها أو موميأها (الفيثوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

ثمّ يؤكد بأنّ الوطن متعلّق به، ولا يقف موقفاً سلبياً تجاه قضاياها، بل إنّما هو الناصح الأمين لقومه، وينصحهم بأن يأخذوا حقوقهم المسحوقة المغتصبة، وألا يياسوا أبداً في سبيل تحقيق تحرير إفريقيا. حتّى يكون بعد ذلك التحرير لإفريقيا، قبره في جوار قبر آبائهم الغابرة:

ها هُنَا واريتُ أجدادي.. هُنَا / وهُمُ اختاروا ثَرَاها كفنا / وسأقضي أنا من بعد

أبي / وسيقضي ولدي من بعدنا / وستبقي أرضُ «إفريقيا» لنا / فهي ما كانت لقوم

غيرنا (الفيثوري: ٧٥-٧٦)

يستذكر بأنّ أبناء إفريقيا واحداً تلو الآخر يفتدون أنفسهم في سبيل حرية إفريقيا. كلّ أبناء أرض إفريقيا مستعدون للتضحية في سبيل الوطن، ومنهم من اختار كفنًا وامتزج بها. ومنهم من ينتظر هذا الشرف. وهنا الفيثوري يكون شاعر القضية: قضية الوطن، والحرية.

نحن أهرقتنا عليه دمننا / ومزجنا بثراها عظمنا / وشققناها بحاراً ورُبى /

وزرعناها سيوفاً وقنا / وركزنا فوقها أعلامنا / فاسلمينا أرض إفريقيا لنا / فاسلمينا

أرض إفريقيا لنا (المصدر نفسه: ٧٥-٧٦)

إنّ أرض إفريقيا، أرض تمازج التاريخ والتربة والدم. وهي الأرض المجبولة بالذكريات المؤلمة والسعيدة بالمعاناة وبالتحدّي، وبإرادة البقاء عليها. ثمّ يؤكد الشاعر الفيثوري على الحرية والاستقلال وطرد كلّ غريب أخذاً الأرض من المستعمرين الذين اغتصبوها.

لقد جعل الفيثوري كلّ شعره في هوى إفريقيا. هذا الهوى يكبر معه وهذا الحبّ هو سرّ عذاباته وتشردّه، حيث يقول في قصيدته «عاشق من أفريقيا» وهي قصيدة من مجموعة شعرية نشرها عام ١٩٦٤ عنوانها: «عاشق من أفريقيا». هي تأتي في نطاق القضية الكبرى التي التزمها الشاعر، قضية القارة الإفريقية التي أخذت تشقّ طريقها إلى التحرّر والانطلاق في الدنّيا الحياة

المعاصرة، عبر مجموعة من الثورات تشنّها ضد الاستعمار والتخلف والتفرقة العنصرية في أماكن متعدّدة، وتحوّل معاركها عن مفاهيمها السطحية اللونية «بين بيض وسود» إلى المفاهيم والقيم الإنسانية التي جعلها معارك الشعوب المسحوقة مقهورة ضد الاستعمار بغية التحرر من الطغيان والاضطهاد والقهر والعبودية، لاسيّما في إفريقيا العربية التي ينتمي الفيتوري إلى أحد بلدانها. والقصيدة تعبير عن أشواق الإنسان الإفريقيّ الحديث وتطلعاته نحو المستقبل، وتحسس بالجرح والقيود، وما ينجم عن ذلك من رذات فعل مضمونها التمرد والتحدّي والثورة. يقدم الفيتوري نفسه إلى القراء شاعراً ملتزماً صناعته الكلام، وسيفه قلمه يناضل به في سبيل الحقّ والحرية، وثورته شعر يعتزّ به ويجلّه عن أن يسخر لمآرب الملوك وأهواء العظماء. فلقد وقفه على هوى متأصل في كيانه، يكبر معه، وينمو على كرّ الأيام وهو سرّ مأساته، وغربته وضياعه وتشردّه وسأمه وعذابه، وفرحه وشقائه، وأمله في الحياة، وكنهه في الوجود، وهاجسه الأكبر حيثما حلّ:

صَنَاعَتِي الْكَلَامُ / سَيْفِي قَلَمِي / وَكُلُّ ثُرُوتِي شُعُورٌ وَنَعْمٌ / لَسْتُ وَاحِداً مِنْ أَنْبِيَاءِ
العَصْرِ... / لَكِنَّ لِي هَوًى يَكْبُرُ كَلَمًا أَكْبَرَ / لَمْ أَمْنَحْهُ مَرَّةً لِمَلِكٍ مُتَوَجِّحٍ / وَلَمْ أَمْرُغْ
وَجَنَّتِيهِ فَوْقَ أَعْتَابِ صَنَمٍ / صَنَاعَتِي الْكَلَامُ / قَدْ أَجِيدُ تَارَةً... وَقَدْ أَخْطَى تَارَةً... /
كُنْتُ عَذَابِي أَنْتِ يَا إفريقيَا / وَكُنْتُ غُرْبَتِي الَّتِي أَعِيشُهَا / وَشَتُّ أَنْ أَعِيشُهَا
(الفيتوري، ١٩٧٠: ٧-٨)

إذا كانت مأساة إفريقيا مقدّر للشاعر فإنّه لا يتملل من ذلك ولا يشعر بغضاضة ولا برم، فهو الذي شاء هذا الأمر ويملء إرادته حمل على كتفيه صليب القارة السوداء وباختياره الحرّ ارتضى أن تكون عذابه وغربته وحبّه الكبير لتكون أغانيه كلّها لها وقصائده وقفاً على هواها:

«وَحَيْنَمَا غَنَيْتُ غَنَيْتُ لِعَيْنِيكَ / وَمَسَّتْ شَفَتِي فِي وَلَهٍ رُمُوشَهَا / حَيْثُ رَأَيْتُ
فِيهِمَا تَوْهَجَ الْأَلَمِ / رَأَيْتُ فِيهِمَا الْعَذَابَ وَالشَّمُوحَ وَالشَّمَمَ» (الفيتوري، ١٩٧٠: ٨-٩)

لقد توحدت الحبيبة والوطن في شعر الفيتوري وظهر هذا الوطن - القارة الإفريقية في هذه القصيدة - كأنّه صبيّة حسناء يهيم بها الشاعر ويمنحها كلّ حبّه. والملاحظ أنّ التداخل بين الألم والعذاب من جهة، والشموخ والشمم من جهة ثانية، قد جعل الحبّ الأليم المعذب ضرباً من الشموخ والكبرياء. وفي غمرة الأحزان تتفجر كلمات الشاعر إيقاعاً كثيباً خلال دوامة من العذاب والقنوط:

صَنَاعَتِي الْكَلَامُ / رَبُّمَا أَثْقَلَ صَوْتِي الضَّعْفُ وَالرُّهْبَةُ أحياناً / فَعَادَ لِي صَدَاهُ، بَاكِياً
حَزِينَ الْمُقْلَتَيْنِ / حَتَّى لِيَبْكِيَنِي صَدَى صَوْتِي / فَأَنْحَبِي أَمْسَحُ فَوْقَ شَعْرِهِ.. وَأَضْغَطُ

الْيَدَيْنِ / وَأَشْرَبُ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهِ الطِّفْلَيْنِ / وَيَتَّقُلُ الْكَلَامَ فِي فَمِي / أَحْسُ أحياناً
كأنما كلامي في فَمِي / مثلُ جذوعِ الشجرِ القَديمِ... (الفيثوري، ١٩٧٠: ٨-٩)

هذا الشعور الذي ينتاب الفيثوري من حين إلى حين هو وليد ما تلقاه حبيبته إفريقيا من ظلم المستعمرين وطغيان المستبدين واستغلال البيض للسود باسم التفوق والامتياز العنصري؛ ووليد الشعور بالضعف والرهبنة وكابوس الرعب الذي يجتاح القارة الإفريقية بوجه لا إنساني قبيح، وهو في هذه القصيدة مقدمة لتحديات الأجيال الإفريقية المعاصرة لكل شكل من أشكال العبودية والاستعمار والتخلف والفقير، مما سيحمله الشاعر موضوعاً لأغنيات إفريقية تتحدث عن روعة الثورات وانبعاث الحضارة، في نهضة إفريقية شاملة على طريق المستقبل، تجعل «المعجزة تحل في جسد الأرض العذراء العارية، وتتفجر في مخيلة الأطفال العبيد إيقاع المستقبل بصخب متوتر وتفتح عبقرى إنسانى، يحول الحجر كلمة وإشعاعاً وخضرة وسعادة» (ميخائيل، ١٩٦٨: ٢٦٩-٢٧٠). ولذلك تأتي هذه الكلمات الحزينة المشوبة بكثرة المساءة معاول قوية تضرب تحت أطباق الثرى لتفجر منها كنوز الأرض، التي يبصرها الفكر قبل أن تلمسها اليد، أو تبصرها العين. وهذه هي رسالة الشاعر الملتزم، أن يقدم لقومه الرؤيا التي تفتح أعينهم على المستقبل، فيطلون عليه من نوافذ الشعر الذي يتحول من كلمات مقولة إلى كلمات فاعلة، ومن مستوي التظهير إلى مستوي التطبيق العملي.

«إن الفيثوري شاعر له شخصيته المميّزة وطابعه الخاص وأسلوبه الذي يتفرد به. له رؤيا سياسية وصوته الرفض ومناصرته لقضايا جماهير الشعب العربي. لا يتعمد الغموض والإبهام ولا يدعي الحداثة الزائفة، بل إنه يرى أن الشعر ليس هدفه أن يصور الأشياء أو ينقل الطبيعة، بل عليه أن يكون أداة فضح وتحريض وثورة وتحدي» (ميشال جحا، ١٩٩٩: ٤٥٥). لذلك يولي اهتماماً ملحوظاً بقضية فلسطين، و«يستلهم معاني شعره من انتفاضة الشعوب المهورة، الشعوب المستغلة المستضعفة نجد ذلك كله في قضية فلسطين في قصيدة «لومات في شفتي الكلمات» وهو لا ينسى فلسطين ومأساتها، يقول في قصيدة «مقاطع فلسطينية» يستحث الهمم للثأر ويهاجم الخونة الذين باعوا فلسطين (ميشال جحا، ١٩٩٩: ٤٥١). وفي قصيدة «ملك أو كتابة» يتناول قضية فلسطين وما أصابها من خيانة، فيقول:

«عيد السيادة... ذكرى اغتصاب فلسطين... / عيد فلسطين... ذكرى المعاهدة
البربرية/ عيد الصومود... وعيد الهبوط/ ويوم الصيام... ويوم الضحية/ ... وأفتى
إبن مالك والشافعية/ وهذا انقلاب لأجل القضية/ وآخر أيضاً، لنفس القضية...»
(الفيثوري، ١٩٨٧: ١٦٥-١٦٦)

هو يختصر موقفه من القضية الفلسطينية بهذا البيت من الشعر: «إنّ جرح فلسطين ليس تضمده الكلمات» (ميشال جحا، ١٩٩٩: ٤٥٢). هو شاعر العروبة كان قد بدأ ينظم الشعر في إفريقيا والدفاع عن قضاياها والذود عن مصالح شعوبها، فإنّه لا يتنكّر لواقعه وقوميّته العربية، فهو عربيّ أولاً وإفريقيّ ثانياً. فلا عجب أن نجد في شعره التيار العروبي صادراً صاحباً. وهو لا بدّ أن يتأثر بواقع أمته العربية والدفاع عن قضاياها. وقد صدمته الهزيمة التي نزلت بها سنة ١٩٦٧ فاكشف أن الطغيان المسلط على رقاب العرب من الداخل والخارج، أشدّ وقعاً وأكثر إيلاماً من الظلم التاريخيّ المحيق بإفريقيا وإفريقيين.

يضاف إلى ذلك كلّ مسرحيته الشعرية «عمر المختار» البطل الليبي، وهي في ثلاثة فصول. وفيها يظهر أنّ «عمر المختار كان يتزعم الثورة الوطنية ضد الطغيان الإيطالي الفاشستي، إلا أنّ البطل الحقيقي هو الشعب الليبي نفسه. وله كذلك مسرحية عن يوسف بن تاشفين البطل المغربيّ البربريّ الذي أعاد للأندلس مجدها بعد أن كاد يتساقط في القرن الحادي عشر الميلاديّ. وهو ناقد وثائر لما أصاب أمته العربية من ذلّ وهوان، ولما ألمّ بها من هزائم وضعف وتشتت. يقول مقرعاً إيّاها هازئاً وساخرأً منها» (نجيب صالح، ١٩٨٤: ٢٣٢):

قد سَقَطَ القدسُ / وغاضَ حافرُ القاتلِ في دماننا المحرّمة / وسقطَ البُراق
والوحي / فهل عرفتِ، أو هل ستعرفين / متى ستسقطين / يا مكة المكرمة؟

هو رافض لهذا الواقع العربي المترديّ، «مرة في رفض البالي من القديم وإحلال الجديد محلّه، ومرة في رفض الظلم وإقرار العدالة الاجتماعيّة ومرة في رفض قوى المسيطرة والتحكّم الأجنبيّ بكلّ أشكاله السياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة ورفض التبعية بوجه عام، وإحيائها على تقديم الاحترام والتقدير» (إسماعيل، دون تا: ٤١٢). ولكن رفضه ليس رفضاً هداماً يريد أن يهدم كلّ شيء. «إنّ رفضه رفض بناءً ينبغي من ورائه النهوض بالأمة العربية ودفعها نحو الرقي والتمدن. يبقى الشّاعر الفيتوري يحمل همّ الشّعر، وهمّ أمته العربية وهمّ، فلسطين، حيث يقول مخاطباً أطفال الحجارة:

ليسَ طفلاً، ذلكَ الخارجُ / من قُبعةِ الحاخام / من قوسِ الهزائم / ليسَ طفلاً
وتَمَاتِم / إنّه العدلُ الذي يكبرُ في صمتِ الجرائم / إنّه التاريخُ مسقُوفاً بأزهار
الجماجم / إنّه رُوحُ فلسطينِ المقاوم / إنّه الأرضُ التي لم تخنِ الأرضَ / وخانتها
الطرايشُ... / وخانتها العمائم... (الفيتوري، ١٩٩٢: ٥٥-٥٦)

هكذا يبدو لنا أنّ قصيدة الفيتوري وثيقة الصلة بالواقع العربي، وبالإنسان العربي، وبالتأريخ العربي. وليست قصائده صدىً أو انعكاساً لقصائد الشعراء الآخرين؛ لأنّها نابعة عن صميم قضايا ومشاكل أمته لا يمكن اقتباسها.

النتائج

١. لقد تطوّر شعر الفيتوري من الرومانسية الذاتية المتشائمة إلى الواقعية الاجتماعية الثورية.
٢. إنّه في البداية كان يشعر بنقص نفسيّ شديد بسبب لون بشرته الأسود، فاستغرق في الرومانسية الحزينة المتشائمة فكدرته هذه الخيالات الوهمية لزمن.
٣. تغيّرت رؤيته الشعرية فيما بعد فأصبح من روّاد لاتّجاه الواقعي ومن أصحاب شعر الرفض والتمرد في السودان.
٤. كانت إفريقيا مصادر إلهاماته الشعرية في البداية، ثمّ اتّسع شعره الإنسانيّ الثوريّ، فشمل قضايا عربية عامة تسمّى بشعر «التخوم» اصطلاحاً؛ بسبب تنقله وتعرّفه على مصائب الدول العربية والتطرق إليها في شعره المعنون بشعر القضايا العربية.
٥. صارت أفريقيا عنده رمزاً للتخلّص من مصائبه المؤلمة. شعره لأفريقيا هي مناجاة نفسية للتعبير عن الأحزان الموجودة في كوامن نفسه الثائرة.
٦. إنّ شعر الفيتوري في المرحلة الأخيرة اتّسعت دائرته فلا يتعلّق بقضية إفريقيا فحسب، بل أصبح شعراً ثورياً عالمياً.
٧. ليست قصائده صدىً للآخرين، بل هو شاعر له شخصيته المتميّزة وطابعه الخاص.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إسماعيل، عز الدين (دون تا). الشعر العربي المعاصر. بيروت: دار العودة.
٢. أمين العالم، محمود (١٩٧٩م). مقدمة ديوان الفيتوري. ط ٣، بيروت: دار العودة.
٣. بدوي، عبده (١٩٨١م). الشعر في السودان. سلسلة عالم المعرفة، مايو.
٤. جحا، ميشال (١٩٩٩م). الشعر العربي الحديث. بيروت: دار العودة؛ دار الثقافة.
٥. الحافظ، منير (دون تا). التراث في العقل الحدائ، بحوث في فلسفة القيم الجمالية. دون مك: دون نا.
٦. شفيعي كدكني، محمدرضا (١٣٨٠ش). شعر معاصر عرب. طهران: سخن.
٧. صالح، نجيب (١٩٨٤م). محمد الفيتوري والمرآيا الدائرية. ط ٤، بيروت: الدار العربية للموسوعات.
٨. العشماوي، محمد زكي (دون تا). دراسات في النقد الأدبي المعاصر. بيروت: دار النهضة.
٩. غريد الشيخ (٢٠٠١م). أيام مع الفيتوري. بيروت: دار الكنوز الأدبية.
١٠. الفيتوري، محمد (١٩٧٠م). الديوان. بيروت: دار العودة.
١١. _____ (١٩٨٧م). الديوان. شرق الشمس غرب القمر. الرباط: منشورات المجلس القومي للثقافة العربية.
١٢. محمد منصور، إبراهيم (١٩٩٥م). الشعر والتصوف. طنطا: دار ميين للنشر والتوزيع.
١٣. مطانيس، ميخائيل (١٩٦٨م). دراسات في الشعر العربي الحديث. بيروت: المكتبة العصرية.
١٤. يوسف بقاعي، إيمان (١٩٩٤م). الفيتوري الضائع الذي وجد نفسه. بيروت: دار الكتب العلمية.